التطهـير أم المتعــة

اعداد

د. ليلى محمد عبد المنعم

التطهـــير أم المتعـــة

د . ليلى محمد عبد المنعم

لقد بات مألوفاً أن يذكر الدارسون ، في مستهل حديثهم عن وظيفة المأساة الاغريقية ، عبارة ارسطو الشهيرة :

" δι' ἐλέου καὶ φόβου περαίνουσα τὴν τῶν τοιούτων παθημάτων κάθαρσιν(١)

ولقد نالت تلك العبارة القائلة : " عن طريق الشفقة والخوف تحقق (المأساة) التطهير من (احداث) تتصف بمثل هذه الانفعالات " (٢) ، اهتماماً فائقاً بين الدراسين يعكسه اتفاقهم علي أن وظيفة المأساة هي التطهير περαίνουσαν τὴν κάθαρσιν (٣) ، واختلافهم حول تحديد متلقى التطهير ، أهو المشاهد أم البطل المأساوي ؟ .

فلم يتوسع ارسطو في الحديث عن هذه النقطة مما أدى إلى انقسام في رأى الدارسين . أحد الآراء يقول إن التطهير ينصب علي المشاهدين لأنه يهدف إلى الارتقاء بمشاعر الفرد ، إذ أن الأحداث المأساوية عندما تقع أمام المشاهد تثير في نفسه شعورى الخوف والشفقة فلا يرى فيها ذاته فحسب ، بل يرى فيها أيضاً الإنسانية جمعاء ، وهو إذاً يشفق علي مصير صنو له في الإنسانية ، وأن هذا الإشفاق ليس شعوراً فردياً بل شعوراً إنسانياً عاماً (٤) . ومن هذه الناحية يقول أحد الدارسين أن جوقة المأساة الإغريقية بوصفها تمثل القاعدة العريضة من المشاهدين ، أو الرأى العام وبوصفها قريبة من الأحداث الجارية على منصة التمثيل ، فإن ردود أفعالها المتمثلة فى احساسها بالشفقة والخوف ستكون موازية لردود أفعال المشاهدين

واحساسهم بالتطهير (٥) .

أما الرأى المغاير فيتزعمه " إيلس " إذ يقول إن هذا التطهير لا ينصب على المشاهد (أو القارىء) بل هو ينصب على الشخصية المأساوية ، لأن عرض سلسلة من الأحداث المأساوية أمام المشاهد تثير في نفسه الخوف والشفقة نحو الشخصية المأساوية وما تعرضت له ، عندئذ يشعر أن هذه الشخصية قد غدت طاهرة Καθαρὸς من أفعالها الآثمة (٦) .

ويحسن قبل الإسهام برأينا - المتواضع - في هذا الخلاف ، حول تحديد متلقي التطهير ، أن نمعن النظر في فقرة أخري من " فن الشعر " تتحدث عن شعوري الخوف والشفقة أيضاً ، اللذين ينتابان المشاهد ويؤديان ، لا إلي التطهير كما في الفقرة السابقة وإنما ، إلي المتعة ؛ يقول ارسطو :

" Ἐπεὶ δὲ τὴν ἀπὸ ἐλέου καὶ φόβου διὰ μιμήσεως δεῖ ἡδονὴν παρασκευάζειν τὸν ποιητήν, φανερὸν ὅτι τοῦτο ἐν τοῖς πράγμασιν ἐμποιητέον. ποῖα οὖν δεινὰ ἢ ποῖα οἰκτρὰ φαίνεται τῶν συμπιπτόντων ἀρμόττον."(٧)

" ونظراً لأنه من واجب المؤلف أن يحقق المتعة الناجمة من الشفقة والخوف عن طريق المحاكاة ، لذا يتضح أن ذلك متضمن في بنيان الأفعال . وعلي ذلك دعونا نقرر ماالذي يبدو مثيراً للشفقة أو الخوف بالنسبة للمشاهدين " .

وليس خافياً أن هذه الفقرة تثير عدة مشاكل ، إذا ماقورنت بسابقتها ، فهي تبين أن واجب الكاتب تحقيق المتعة - لا التطهير - وأن الشفقة والخوف

يثيران المتعة – لا التطهير – وأن المشاهد يشعر بتلك المتعة . ولعل من الأصوب أن نتناول بالمناقشة ماتتفق حوله الفقرتان قبل أن نتناول ماتختلفان فيه . تتفق الفقرتان فى ضرورة توفر شعوري الشفقة والخوف سواء أديا إلى تطهير أم متعة .

نلاحظ أن ارسطو قد حدد مبعث هذين الشعورين : الخوف (٨) والشفقة في عبارة صريحة تقول " الشفقة لمن لا يستحق (التعاسة) أما الخوف فمن أجل المماثل (لنا) " :

(٩) "ἔλεος μὲν περὶ τὸν ἀνάξιον, φόβος δὲ περὶ τὸν ὅμοιον"

أما الشخصية التي يثير مصيرها الخوف والشفقة فلها طبيعتها المحددة ، فهي في رأى ارسطو يجب ألا تكون خيِّرة تماماً أو شريرة صرفة بل في منزلة بين هاتين المنزلتين ، وأن تحل بها المصائب وتتردى في هوة الشقاء لاللؤم فيها أو خسة بل لسوء تقدير أو عثرة رأى كبيرة أو خطأ ἁμαρτία (١٠) ، غير متعمد قد وقعت فيه . ومعني ذلك أن إثارة الشفقة هي نتيجة لما حل بالشخصية الرئيسية من آلام وشقاء لاتستحقها ἀνάξιος ، أما الخوف فلأن هذه الشخصية شبيهة بنا ὅμοιος ، أى أنها تماثل الإنسان تماماً فى جميع النواحى والوجوه سلوكاً وفعلاً . ولهذا فإننا نشعر بالخوف عندما نتصور أنفسنا فى نفس موقفه .

ولدينا من بين شخصيات المأساة الإغريقية – مثالان يلقيان الضوء علي هذه النقطة بالتحديد ، وهما أويديبوس – في مأساة أويديبوس ملكاً – وكليتمنسترا في مأساة أجاممنون . فنحن نشعر بالخوف والشفقة إزاء مصير أوديب الأليم لأنه ناجم عن خطأ غير مقصود ، ولأننا نشعر بأننا

قريبين منه ، وأننا عرضة لتجربته ، بينما لانثار فينا تلك المشاعر تجاه مصير كليتمنسترا القاسي لأن خطاها متعمد ، أي أن جزاءها من أصل عملها ، فضلاً عن إننا نشعر بأننا لا نشترك معها في صفاتها ، بل نشعر بأننا بعيدون عنها .

وبعد أن بيّنا مبعث شعوري الخوف والشفقة – في رأي أرسطو – ننتقل إلى تناول إحدي المشكلات التي تثيرها فقرة ارسطو السابقة وهي أن الخوف والشفقة يؤديان إلي الشعور بالمتعة (١١) . ولتوضيح هذه الإشكالية نقول أن البكاء رغم كونه شيئاً مؤلماً ، فإنه – في بعض الأحيان – مدعاة للإحساس بالمتعة ، أو الإرتياح ، إذا كان استجابة لآلام جسمانية أو نفسية ، فاخيليوس ، علي سبيل المثال ، قد شعر بالمتعة ، أو بالإرتياح ، عندما انخرط في البكاء بعد مصرع صديقه الحميم باتروكلوس (١٢) . ويقول افلاطون أن مشاهد المأساة الإغريقية يشعر بالمتعة عندما يدفعه الخوف إلي البكاء (١٣) .

إنطلاقاً من ذلك المفهوم ، هل يتعارض معني التطهير مع المتعة ؟ . إن التطهير يتفق – في تقديرنا – مع المتعة في أنه نوع من الإحساس بالراحة أو الخلاص مما يعتري النفس من نوازع آثمة ، وليس التطهير من الجريمة . فالشخصية المأساوية مصيرها محتوم بمعني أنها فيما تقوم به أو تعانيه من أحداث في المأساة ليست إلا جزءاً من التراث الذى حدد مصيرها قبل أن تتناولها المأساة . ومن هنا فإن الشخصية المأساوية لاتتطهر ولكنها فيما تقوم به أو تعانيه تُشعر الغير بالراحة أو الخلاص – بالتطهير أو المتعة – وهذا الغير ليس إلا جمهور المشاهدين .

ولما كان التطهير أو المتعة يتحققان عن طريق الخوف والشفقة وهما شعوران يُثاران في نفس المشاهد أو القارىء كما قدمنا ، فإ المشاهد أو القارىء – وليس البطل المأساوى – هو الذي يحظى بالتطهير أو المتعة ، فذلك أقرب إلي طبيعة المأساة باعتبارها فناً إنسانياً مرتبطاً بقضايا الإنسان (١٤) ، والمجتمع (١٥) . كما أن المأساة لاتهتم بالشخصيات كأفراد فحسب ، وإنما الشخصيات في الشعر – ومنه المأساة – رموز لنماذج إنسانية كلية (١٦) ، أى نماذج إجتماعية .

فإذا كان التطهير لا يختلف عن المتعة بالمفهوم الذي قدّمتُهُ ، فهل يمكن القول أن وظيفة المأساة هي التطهير أم المتعة ، أم الاثنين معاً ؟ . لعلنا نذكر أن أرسطو يقول في الفقرة الأولي (١٧) أن وظيفة المأساة هي تحقيق التطهير ، ثم يقول في الفقرة الثانية (١٨) ، أن واجب المؤلف تحقيق المتعة ، فهل يوجد اختلاف بين العبارتين سواء في استخدام كلمة المأساة مرة والمؤلف مرة أخري في حين إنهما يدلان علي شيء واحد ، أو هما وجهان لعملة واحدة .

ونضيف إلى ما تقدم – عن التطابق بين التطهير والمتعة – دليلين ارسطيين آخرين أحدهما من كتابه الأخلاق النيقوماخية (١٩) ، حيث يقول أن الفعل الجاد σπουδαίος يحقق المتعة ، ثم يقول في فن الشعر أن المأساة – التي يصفها بأنها محاكاة لفعل جاد – تحقق التطهير (٢٠) .

أما الدليل الآخر فنجده في السطور الأخيرة من كتابه فن الشعر حيث يقول ، في حديثه – مرة أخري – عن وظيفة المأساة ، " يجب أن تحقق (المأساة) المتعة " καὶ τὴν ἡδονὴν ποιεῖν "(٢١)

وأخيراً أرجو أن أكون قد أسهمت في إجلاء وظيفة المأساة بوصفها فناً إنسانياً إجتماعياً يصور أحداثاً مأساوية من شأنها أن تثير إنفعالات المشاهد أو جمهور المشاهدين وهم المواطنون الأغريق الذين كانوا يغشون المسرح الاغريقي مدفعوين بعقيدتهم الدينية وتعلقهم بالتراث البطولي لمشاهدة ماقام به أبطالهم وماقاسوه من أحداث مأساوية حيث تحقق لهم المشاهدة تطهيراً أو متعة من نوع خاص ، وهذه هي وظيفة المأساة الحقة التي تهز النفوس بمحاكاتها للفعل وتعمل عملها فيها بغير طريق الوعظ والإرشاد .

حواشي البحث

(١) Arist., Poet., 1449 B. 27 - 28.

(٢) – قمت بإضافة بعض الكلمات بين الأقواس محاولة إجلاء الغموض عن هذه العبارة التي اختلف الدارسون في ترجمتها . ففي ترجمة " بوتشر " :

Butcher, S. H., Aristotle's theory of Poetry and Fine Art, with a Critical Text and Translation of The Poetics, Fourth Edition (London, 1907), p. 240.

نقرأ قوله :

"Through pity and fear effecting the proper "Katharsis", or purgation of these emotions".

ويتضح من ترجمته أن التطهير عنده " من هذه المشاعر " أي من الخوف والشفقة ، في حين أن هذين الشعورين هما أداتا تحقيق التطهير ، كما سنوضح فيما بعد .

أما في ترجمة " إيلس " :

Else, G. F., Aristotle's Poetics : The Argument (Cambridge Univ. Pr., 1957), p. 221.

فنقرأ قوله :

"Through a course of events involving pity and fear, the purification of these painful or fatal acts which have that quality".

ونحن نميل إلي ترجمة " إيلس " في ربطه بين شعوري الخوف والشفقة وبين الأفعال ، ومما يدعم موقفنا أن أرسطو – نفسه – يعبر

عن هذه النظرة في أكثر من فقرة من فن الشعر ، ففي فقـرة ١٤٥٢أ ١ – ٤ يقول : " إن المأساة محاكاة لأفعال تتضمن الخوف والشفقة " . وفي فـقـرة ١٤٥٢ب ٢١ – ٢٢ يقـول : " يجب أن تكون (المأسـاة) محاكاة تتضمن خوفاً وشفقة ، لأن هذا هو الغرض من المحاكاة التي من هذا النوع " . وفي فـقـرة ١٤٥٢ ب ١ – ٧ يقـول : " إن هذين الإنفعالين يوجدان في بنيان الأفعال وحده " .

وجدير بالذكر أن ارسطو قد تناول موضوع التطهير في كتابه السياسة (Polit., 8. 1449B 32ff.) غير أنه ربط بينه وبين الموسيقى بوصفها تثير مشاعراً تؤدي إلي تحقيقه .

(٣) Golden, L., "Catharsis" TAPHA, 93, 1962, pp. 51 - 60.

....., " The Clarification Theory of Katharsis", Hermes, 104, 1976, pp. 437 - 452.

Somville, P., Essai Sur La Poétique D'aristote (Paris, 1975) 78 - 95.

Bennet, K., "The Purging of Catharsis, British Journal of Aesthetics, 21, 1981, pp. 204 - 213.

(٤) – ابراهيم (د. محمد حمدي) ، دراسة في نظرية الدراما الإغريقية (دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٧) ص ٢١ ، ٩٨ .

Butcher, S. H., op. cit, pp. 262 - 263 & 266 - 267.

Hirsh, Eric. D., "Privileged Criteria In Literary Evaluation" Problems of Literary Evaluation, Ed. Joseph Strelka (Univ. Park, Pa : Pennsylvania St. Univ. Pr., 1909) p. 32.

(٥) Robertson, Durant. W., A preliminary survey of The Controversy Over Aristotle's Doctrine of Tragic Catharsis (Chapel Hill : Univ. of North Carolina, 1937) pp. 182 - 183.

(٦) Else. G. F., op. cit., pp. 437 - 438.

(٧) Arist., Poet., 1453B 11 - 15.

(٨) – الخوف هنا لايمثل الرعب والفزع ؛ إنه مجرد الشعور بالخشية . وهذا واضح من نقد ارسطو (Poet. 1453B 8 - 10) الذى يوجهه إلى الشعراء الذين يهدفون إلي إثارة الخوف عن طريق المشاهد المرعبة .σκηνικὰ حيث يقول أن مثل هؤلاء الشعراء ليسوا شعراء مأساة علي الإطلاق .

(٩) Arist., Poet., 1453A 5 - 6 .

(١٠) Ibid., 1452B 34 - 38, 1453A 17 - 18.

وقد عرّف ارسطو هذا اللفظ في مؤلفين آخرين :

(Rhet., 1374B 16, E. N., 1135B 12, 18.)

بانه " خطأ لايصدر عن شر متعمد " بمعني أن صاحبه ليس شريراً بطبعه .

ويري بعض الدارسين المحدثين أن ذلك اللفظ يعنى الجهالة أو الاخفاق في الادراك السليم . انظر :

Wimsatt (William. K.) & Brooks (Cleanth), Literary Criticism, A short History (New York, 1957) p. 39.

Else. G. F., op. cit, pp. 383 - 384.

(١١) – راجع حاشية ٧ .

(١٢) Hom., IL. 24. 513.

(١٣) PL., Philebus, 47E - 48A.

(١٤) – يذكـــر بـــاورا (Bowra, C. M., Landmarks in Greek Literature, Pelican, 1966) p. 201

أن المأساة تبحث في قضايا السلوك الإنساني .

(١٥) – حول صلة فن المأساة بالمجتمع انظر :

Snell, Bruno, Poetry and Society, The Role of Poetry in Ancient Greece (Indian Univ. Pr., 1961) pp. 72 - 90.

(١٦) Arist., Poet., 1951B 8 - 10.

ويعتبر استخدام القناع في المأساة الإغريقية القديمة دليلاً واضحاً علي عموميتها ، وبعدها عن تصوير الشخصيات كأفراد جزئيين ، انظر :

Bowra, C. M., Op. cit., p. 157.

(١٧) – انظر حاشية ١ .

(١٨) – انظر حاشية ٧ .

(١٩) Arist. E. N., 1174B 20 - 23.

(٢٠) Arist. Poet., 1449B 24 - 28.

(٢١) Ibid., 1462B 13.